عادل عزت

السبعة

شِعر

الأيادي

السبعة

عادل عزت

الأيادي

السبعـة

المؤلف : عادل عزت

الناشر : الأيادي للنشر والتوزيع - تليفون : 39 24 476 012

الطبعة الثالثة : القاهرة 2009

رقم الإيداع بدار الكتب : 3551 / 2009

جميع الحقوق محفوظة

السبعـــة

قدِ اصْطَفَيْتُ النورَ من مُكَوِّناتِ النارْ .

فأَمْسَكَتْني حَفْنَةٌ من الرياحِ والظلالِ
حينَ كنتُ في المَدَى فأَسْلَمَتْ بَعْضِي
إلى بئرٍ ، وبَعْضًا للجبالْ .

رأيْتُ نَفْسي سَبْعةً تَشَتَّتوا عَبْرَ
التِّلالْ .

أوَّلُهم أنا أغادِرُ الصِّبا إلى فتاةٍ
أَسْلَمَتْ لي نَفْسَها ظَنًّا وتَخْمينًا ،
وغابَتْ في أَشِعَّةِ الأُفولْ .

نَعَمْ لقد غابتْ فَقُلتُ إنما الإخفاقُ في العِشْقِ تُراثُ عَرَبِيٌّ ... كان بينَ الشاعرِ الناحلِ ، والحبيبةِ التي تنامُ للضُّحى، فَوْضَى، من الحُرَّاسِ ، والحِرابِ، والخيولْ.

في مَسْجِدٍ حاربْتُ أشواقي ، وقلتُ لن أخافَ هاهُنا مِنْ سَكْرةِ الآثامْ .

جَعَلْتُ نَفْسي زَهْرَةَ الصَّبَّارِ لا تَخْشَى، مِن الحِرمانْ .

وبَـعْـدَ يـومـيـنِ أَتَـتْ سـائـرةً كـأنَّ حَـوْلها السحابْ .

كـادتْ تَغِيْـبُ فانْسَلَلْتُ خَلْفَها أتْـبَـعُـها . وَجَدْتُها في ليلةٍ مُقْمِرةٍ بين الظِّلالْ .

قالتْ أنا غريبـةٌ . هنـاك بَيْتي بعد ألـفِ لَيْلةٍ مِن المَسيرْ .

رَحَلْتُ في رحيلها ، وبَعْدَ لَيْلتينِ كنَّا تَائِهَيْنِ في حدائقِ المَجوسْ .

قَدِ اخْتَفيتُ في اخْتِفائها وقِيْلَ
إنني قُتِلْتُ عِشْقًا بَيْنَ ما قِيْلَ
عَنِ ارْتِحالِنا ، وبَيْنَ ما أُشِيْعَ من
حِقْدٍ ومِنْ أَخْبارْ .

وقال بعضُ أصدقائي عن مَصيري إنني
أَلُوْحُ رائعًا ومارِقًا وإنني بغَيْرِ قِيْمَةٍ
كطائرٍ مُهاجرٍ بين الطيورْ .

وباخْتِفائي صرتُ سِتَّةً يراقبونَ سَيْرَ
الليلِ والنهارْ .

من بَيْنِهم أنا الذي يَشْتاقُ للنجومْ .

فلم أَجِدْ لها طريقًا غيرَ أن أصعدَ في تصاعدِ الأنغامْ .

ما أكثرَ النشْوةَ والشهْوةَ إذ تَخْرجُ من مباهجِ الأوتارْ .

تَرَكْتُ روحي في صُعُودِها مع المُروجِ والتِّلالْ .

أَخْرُجُ من صَيْفٍ طَويلٍ نحو ظُلْمَةِ الثلوجِ في هُنَيْهَةٍ وأَحْتَمي من الأبواقِ في كوخٍ من الأكواخْ .

داوَيْتُ بالأنغامِ جُرْحًا قد أصابَ الروحَ مِنْ عِشْقٍ رأيتُهُ كذئبٍ قاتلٍ . أَصْلَحْتُ مِنْ شأني ومِنْ قَلْبي فجاءَتْ دَفْقَةٌ من الشَّذَىٰ أَرْسَلَهَا القِيْثارْ .

فغِبْتُ في تتابعِ الأشجارْ .

قاتَلْتُ بالأنغامِ مَنْ مَرُّوا بخاطِري مِنَ الأوغادْ .

أنا الوسيطُ بين عالَمٍ من الأشياءِ والأصواتْ .

كأنني أَرَدْتُ أن أَرْنو إلى الأرواحْ .

كأنني أَرَدْتُ أن أُدْرِكَ سِرَّ ذلك التناسُقِ المَحْمومِ بالفَوْضَى وبالصفاءْ .

لا صَمْتَ يستطيعُ أن يَدْخُلَ بَيْنَ هذهِ الأشجانْ .

ليس هناكَ من مَسارٍ واضحٍ لكُلِّ هذهِ الينابيعِ ، ولكنَّ الغِناءَ لا يَضِلُّ في طريْقِهِ إلى السَّماءْ .

إنَّ الثـوانـي مُـجْـهَـداتٌ. أيـن أمـضـي أو مَـتَـى أَرْسُـو؟! لَـقَـدْ أَحْـبَـبْـتُ ذلـك الضَّياعْ.

وهـا أنـا فـي حَـضْـرَةِ الـربِّ الأصَـمِّ تـابِـعٌ تـأخُـذُنـي الأنـغـامُ في إبـداعـهـا الأقْـصَـى إلـى المنـابـعِ العُـلْـيـا قُـبَـيْـلَ النـورْ.

أَزْعُـمُ أنَّ هـذهِ الأنـغـامَ تُـوْصِـلُ الحـيـاةَ للكمالْ.

ما هذه الرقَّةُ تَسْرِي داخلَ الشوق
الذي يَفيضُ بالآلامْ؟!

شعرتُ غُرْفَتي مَلاذًا للمقدساتِ ،
للشَّذَىٰ الذي ينسابُ مِنْ جُدْرانِ مَعْبَدٍ
عَتيقْ .

نافِذَتي تفصلُني بِضْعَةَ أمتارٍ عَنِ
النجومْ .

وجاء جاري يشتكي من ارْتِفاعِ
الصوتِ فاسْتَفَقْتُ من غيبوبتي
معتذرًا ، وتاركًا بعضي الذي يعيشُ في
الذهولْ .

أصبحتُ خَمْسَةً يسايرونَ هذه الحياهْ .

مِنْ بَيْنِهِم أنا الذي يَحْمِلُ قلبًا في رحيلِهِ يَتوقُ للرحيلْ .

فَرُحْتُ أمضي من كتابٍ لكتابٍ أَنْتَقي الأنوارَ من بَيْنِ السطورْ .

أبكي مع البدوِ على الأطلالِ لَيْلَةً ، ولَيْلَةً أجوسُ في نُفوسِ الروسِ ، في جنونِهم ، ولَيْلَةً أسرِي مع القرآنْ .

وجدتُني ذاتَ صباحٍ أكْتُبُ الأشعارْ .

كَتَبْتُ أنهارًا وأزهارًا وحُمَّى فانْتَهَى أَمْري إلى الأحلامْ .

أخرجُ من قصيدةٍ كأنني مُطَارَدٌ مُطارِدًا قصيدةً أخرى . تراءتِ الرؤى مِثْلَ شهابٍ في الضبابْ .

فصِرْتُ معنًى غامضًا أهيمُ كالظلامِ في البستانْ .

أَكْثَرَ من سَبْعِ سنين في حِمَى الشِّعْرِ
كأنني جماعةٌ من العبيدْ .

أَسْقي أراضِيْهِ ، وأَسْرِي في مراثِيْهِ ،
وأبكي من شعوري بالإلهْ.

مُنْعَزِلاً ، وقانِعًا بذلك الخضوعْ .

ثلاثةً كنتُ أنا هناكَ في بدايةِ
الشبابْ .

تعاشَروا على مَوَدّةٍ . همُ الحالمُ والمُصْغي إلى الأنغامِ والشاعرُ . ما كانَ هناكَ بَيْنَهُمْ سِوَى قليلٍ من عتابْ .

وها أنا الرابعُ وَجْدٌ غامضٌ أرَى الحياةَ أَفْلَتَتْ مِنِّي كأنها قَدِ اخْتَفَتْ وراءَ بابْ .

أَخْفَيْتُ أكثرَ الحرائقِ التي بداخِلي عَنْ كلِّ مَنْ حَوْلِي . نَعَمْ أَخْفَيْتُها فَصِرتُ كالمَنْفيِّ ، والحياةُ في عِصْيانِها وراءَ بابْ .

تَسَلّلَتْ نَفْسٌ لِنَفْسي في الخفاءْ .

أكنتُ أدري حينذاكَ أنها رُفْقَةُ عُمْرِي . تَبْعَثُ الأنوارَ في لَيْلي ، وتُدْفِئُ الشتاءْ ؟

لقد رأيتُها تَراني كالحَمامةِ التي ليستْ تَفِرُّ مِنْ وجودي وأنا عَنْها غريبْ .

كَلَّمْتُها بغَمْغَماتٍ ، ثمّ سِرْنا ، أَخْلُقُ الأعذارَ كي يَطُولَ سَيْرُنا ، وقلتُ أَغَمِضِي عَيْنَيكِ تُصْبِحي هناكَ في بدايةِ المَغِيبْ .

بذاكَ يبدأُ اخْتِفاؤنا فلا نَعُودْ .

عادَيْتُ نَفْسي ثُمَّ أَهْلي في هواها . لَسْتُ مَنْ يُحَرِّفُ النَّبْضَ الذي تَسْمو بِهِ بَعْضُ القلوبْ .

لفَرْطِ ما أحببتُها فرَّقَ بيننا الرحيلْ .

فَغِبْتُ في مَكَّةَ خائبًا أصدِّقُ الرَّعادِيْدَ ، وأَحْتَمِي بكاذبِ الوعودْ .

حتى أَتَتْني لَيْلَةٌ رَغِبْتُ فيها أنْ أموتْ .

أَلَمْ أَكُنْ أَرْبَعةً لا يُحْسِنونَ الخَوْضَ في الحياهْ؟!

ماذا إذَنْ يَعْصِمُني - أنا الفَتَى الذي تَفانَى في خيالِهِ - مِنَ الدخولِ في الجنونْ؟

إلامَ أَبْدو ساهِـمًا تلـومُـنـي عُـيـونُ
مَـنْ حَـوْلي ، وتَـسْـتَـخِـفُّ بي رغـائـبُ
الأيامْ؟

أَنْـقَـذَني الخامسُ ... لا قاتَلَهُ الإلهْ .

هو الذي يُحِبُّ أَنْ يعيشَ بَيْنَ الناسْ .

أَنْقَذَني بأَنْ تَخَلَّى عَنْ ثلاثةٍ هُمُ الحالمُ ،
والمُصْغي إلى الأنغامِ ، والشاعرُ ... قد
جَفَّتْ ينابيعي فنادتْني الصحارِي
فاسْتَجَبْتُ للنداءْ .

غَدَوْتُ في مَسارِبِ الصباحِ واحدًا من
الآحادْ .

سبعَ سنين في أراضي القَيْظِ
والنِّفْطِ أَعِيْشُ أهداً الأيامْ .

مَكَثْتُ بين الناسِ صافِياً مُحِبَّاً
لَمْ أَمَلَّ مِنْ أحاديثَ بلا مَعْنى ،
وما ضَجِرْتُ من مصائرِ الذين ما لهم
مَصِيرْ .

تلاءَمَتْ روحي وأحلامي مع الأرقامْ .

مَكَثْتُ بين الناسِ لا أخونُ مَنْ
حَوْلي ، ولا أخونُ نَفْسي . هكذا علَّمَني
أَبِي فَما اقْتَرَبْتُ مِنْ حرامْ .

ما كنتُ نادِمًا عَلَى زوالِ أعوامٍ من الإسراءِ ، والأشعارِ ، والآلامْ.

ما كنتُ نادمًا عَلَى زوالها كأنها عُمْرٌ بَعيدٌ عَنْ كِياني لَمْ أَكُنْ أنا الذي قد عِشْتُهُ ، ولَمْ أَكُنْ أنا الذي قَضَيْتُ ليلاً بَعْدَ ليلٍ أُدْخِلُ الأوزانَ في مباهجِ الأنغامْ.

لكنني أرجعُ مِنْ هناكَ أُسْرةً لأبدأَ الحياهْ .

ويبـدأُ الثـلاثةُ الذينَ كُنْـتُ قد هَجَـرْتُهم يَـتُـوقون إلىٰ الحياهْ .

ما كنـــتُ أدري أننـــي ســوف أعــودُ ذاتَ يومٍ كلَّ نفسي ... خَـمْـسَـةً يُضـافُ سادِسٌ إليـهـم لَـيْسَ يَحْيا بَـيْـنَـهُـمْ . يَـعيـشُ في أهـوائِـهِ عاقـًّا وجانِـحـًا ومِـتْـلافـًا ولا يَـخْـشَـىٰ من النيرانْ .

أراهُ مِـنْ سُلالـةٍ هالِـكَـةٍ لَـيْسَـتْ تَـكُفُّ عن حَنينِها إلىٰ النساءْ.

كأنه يَضْعُفُ إنْ أحسَّ بالشَّذَىٰ ، وإنْ رَأَىٰ الظلامْ .

لا يَكْتَفي ، ولا يَكُفُّ عَنْ هروبِهِ ، وعَنْ زيارةِ البستانْ .

شَكَوْتُ مِحْنَتي لبعضِ أصدقائي أخبروني أنهم مِثْلي ، وأني مُسْرِفٌ في لَوْمِ نَفْسي . ساءلوني هل تريدُ أَنْ تكونَ ناسِكًا يَفِرّ للسرابْ؟!

وهـا هـو الـسـابـعُ في ظـلامِ روحـي
لا يَبِينْ .

أشعرُهُ يَجُوسُ في كهولتي مغافِلاً قَلْبي
الذي يَنْبِضُ في بدايةِ الشبابْ .

أشعرُهُ كأنَّهُ قد عـاشَ أعوامًا طِـوالاً في
عهودِ الأنبياءْ.

كأنَّهُ يَمْـلِـكُ حِكْـمَـةً تَـرَىٰ تَوَحُّـدَ الإنسـانِ
بالأشجارِ والسماءْ.

هو الذي سوف يُزيحُ الخوفَ عني إنْ أَتَى المَماتْ.

وقَبْلَ هذا عَلَّهُ يَجْعَلُ مِنْ نَفْسي كِيانًا مطمئنًّا هادئًا لا يرهبُ الأقدارْ .

نعم أنا السَبْعَةُ في الواحِدِ . إنني المرايا تأخذُ الأشياءَ في أعماقِها بغيرِ أن تُحَرِّكَ الأشياءْ .

كلُّ المعاني تَسْتَحِيْلُ ذِكرياتٍ تَدْخُلُ النسيانْ .

جِسْمٌ يروحُ للترابِ نادِمًا وغَيْرَ نادمٍ فتَمْضِي روحُهُ تَلْحَقُ بالأرواحِ في الفضاءْ .

ومِنْ عَلٍ تنظُرُ نحو الأرضِ دونما أسًى ... قد كنتُ في الدنيا رحيلاً عابرًا، واسْمًا من الأسماءْ .

1991

هذيـــان السجيـــن

إلى مبدع قصة «السيد س»
إلى نجيب محفوظ

أنا القَطَراتُ التي تَتَمَلْمَلُ في باطنِ الأرضِ . كيف الوصولُ إلى النهرِ في ذلكَ الليلِ ؟ إنَّ الرمالَ تحاصِرُني ... والمسافاتُ إنْ سِرْتُ فيها تلاشَيْتُ شيئًا فشيئًا لذا قد تَسَلَّلْتُ في لهفةٍ نحو أَقْرَبِ بئرٍ ... أنا القطَراتُ وفوقي تداخلَتِ الظُّلُماتُ بفَيْضِ النجومْ .

يَمُرُّ عليَّ كثيرٌ من الزمنِ العربيِّ المحَمَّلِ بالصيفِ ، والسِّحْرِ ، والقَمَرِ الواضحِ المُسْتَبِدِّ . أنا القَطَراتُ أُحبُّ الغيومْ .

لقد شربَتْني القوافلُ لكنني أتجدَّدُ في كلِّ عامٍ بفَضْلٍ من اللهِ إذ يُرْسِلُ الغَيْثَ نَحْوي فَيُمْهِلُني أَنْ أعيشَ ولو بعضَ حينْ .

وذاتَ نهارٍ وكنتُ أكادُ أجِفُّ شَعَرْتُ صَبِيًّا رَمَتْهُ إلى البئرِ أقدارُهُ فامْتَزَجْتُ ببعضِ الذي كان يُرْسِلُهُ مِنْ دموعْ .

لَـقَـدْ كِـدْتُ أجعـلُ مـنـه أنيسـي فـجـاءتْ أُناسٌ وفي بُـرْهَةٍ رَفَعُـوهُ بعيـدًا فعُـدْتُ إلىٰ وَحْدَتي . ليـس يـزدادُ عـمريَ مَهْمـا تَمُرُّ القرونْ .

وجاء مساءٌ مُخيـفٌ به الظُّلُمـاتُ تَـهُـشُّ النَّـدَىٰ والشَّـذَىٰ ، وهـنـاكَ فـتـاةٌ قدِ اسْتُشْـهِـدتْ في المَـدَىٰ . دفنـوها قـريـبًا فرُحْـتُ إليهـا أبلِّـلُهـا ، وأغـيـبُ خـلال الجُروحْ .

أنا الـقَـطَـراتُ حـيـاةٌ تـجـيءُ وأخـرىٰ تَروحْ .

تَلَوَّثْتُ مُغْتَسِلاً بالدماءِ ، وجاءتْ عواصِفُ مَشْبُوبَةٌ بالرحيلِ أزاحتْ رمالاً عَلَتْني . لقد حَمَلَتْني فصِرْتُ دماءً وماءً وريحًا . روائحُ فُلٍّ وعُشْبٍ تحيطُ بِنا فَدَخَلْنا إلىٰ رَحِمِ امْرَأةٍ حامِلٍ قد تَعَرَّتْ ، وصِرنا كِيانًا تَوَحَّدَ مُنْدَمِجًا بكِيان الجَنينْ .

حياةُ المَجَرّاتِ مَرَّتْ علينا ، وسِرُّ الزهورِ ، ولَيلُ المُحيطاتِ إذ نَحْنُ ذاكَ الجَنينْ .

إلى، أنْ أَتَتْ ساعةٌ ألهمتْنا الخروجَ من الأُمِّ . ها نَحْنُ صِرنا رضيعًا فضاعَ الذي قد رأيناهُ في لَحْظَةٍ . لَمْ نَعُدْ غَيْرَ قطْعَةِ لَحْمٍ تجوعُ وتعطشُ ، تنمو مع الصبحِ والليلِ حتى، إذا مرَّ عامٌ أنا أتعثَّرُ في خُطواتي أريدُ المَسِيرْ .

وَصَلْتُ الصِّبا صرتُ في لهفةٍ أَتَعَطَّشُ للقِصَصِ المُنْتَقاةِ من الأقدمينْ .

نعم شهـريـارُ لَـهُ تُـستـبـاحُ العـذارىٰ ،
ولِي أنْ أحبَّ التي تتجاهلُنـي من بعيـدٍ
فَـتُـغْـلِـقُ نافـذةً .... آهِ يمكنُـها هكذا
أنْ تَـرانـي ولَسْتُ أراها فـأَبْـقَىٰ كـذلك
مـنـتـظِـرًا لا أمَـلُّ إلـىٰ أَنْ أضيعَ وراءَ
المَغيبْ .

أكـنـتُ أنـا مَـنْ بَـكَىٰ مِـنْ معـانٍ أرقَّ
مِنَ الـنـورِ جـاءتْ مـصـاحِـبَـةً لـغـنـاءٍ
حزينْ ؟!

ظلامُ الحديقةِ يُخْفي اللقاءاتِ ...
كَفٌّ تمرُّ بشَعْري ، وصَدْرٌ يلامِسُني
تاركًا عِطْرَهُ نَبَضاتٍ بصَدْري . بهذا
ستُدْرِكُ أُمِّي ، ومِنْ شُبُهاتٍ أتَتْ
بقميصي بأني تَحَوَّلْتُ شابًّا أمرُّ
بها كالغريقْ .

حَيِيًّا خُلِقْتُ ، ومُسْتَرْشِدًا بصفاءٍ
يؤانِسُ قَلْبي فأشعرُ بالغَيْبِ يَسْكُنُ
عَتْمَتَهُ في ثَنَايا الغَمَامِ وبَيْنَ
النجومْ .

صديقٌ وحيدٌ ألوذُ بهِ . كنتُ أُثْقلُهُ بهمومي ، فيُثْقِلُني بقصائِدِهِ ، وهْيَ أحزانُهُ وقد امْتَزَجَتْ بالزهورْ.

محبّةُ نَفْسٍ لنَفْسٍ ، وسِحْرُ الصداقةِ ، والنهرُ يزدادُ مَجْدًا خلالَ الغروبْ .

وإنَّ الصديقينِ هَمْسٌ مع الليلِ يَسْرِي فتبدو المسافاتُ لا تَنْتَهي ، والمُناجاةُ لا تَنْتَهي ، والعذارىٰ تَمُرُّ بنا وتغيبُ كأنْ لَمْ تَكُنْ ثم حَيْنَ أعودُ إلىٰ غُرْفَتي تتجسَّدُ لي قَبْلَ أنْ يحتويْني المنامْ .

هو الفَجْرُ يبدو قريبًا فكان ذَهابي لمَدْرَستي كلَّ يومٍ زيارةَ زنزانةٍ أتمنَّى لأحجارِها أَنْ تَبيدْ .

أروحُ بجِسْمي لها ماكِثًا بَيْنَ جُدرانِها . إنَّهُ زمنٌ لا يكادُ يمرُّ . أُجارِي كثيرًا مِنَ التُّرَّهاتِ ، ووقتَ خروجيَ مِنْ بابِها كنتُ أطردُها مِنْ كِياني ، وأُبْقِي قليلاً مِنَ النورِ والذكرياتِ ، وفي كلِّ عامٍ يطاردُ نَفْسيَ وَهْمُ رهيبٌ يُسَمَّى الرسوبْ.

صرامةُ قاضٍ ظَلُومٍ تُعَلِّمُ جِيْلي ،
وتَجْعَلُ من حاكِمٍ لا يحبُّ الرعيَّةَ
مُلْهِمَنا . يا لَهُ صَنَمًا قاتلاً جاء
بالشؤمِ ثم انْتَهَى بَعْدَ أنْ قاتَلَتْهُ
اليهودْ.

فظلَّ ثلاثَ سنينٍ يموتُ بطيئًا
ويا ليتَهُ ما أتَى للوجودْ.

نعم إنني أتذكَّرُ لَيْلاً سَمِعْتُ بِهِ صَيْحَةً ثُمَّ وَلْوَلَةَ امْرَأةٍ وبكاءً . رجالُ الزعيمِ أَتَوا في الظلامِ ليَعْتَقِلوا جارَنا . أخذوهُ وراحوا بِهِ فاخْتَفَى . خائنًا كان أو ضالعًا في مؤامرةٍ ذاك ما قد أُشِيْعَ ولكنَّهُ لَنْ يعودْ .

وبعدَ زمانٍ قصيرٍ تَهَامَسَ بَعْضُ من الناسِ في خِيْفَةٍ إنَّ أسْرَتَه رَحَلَتْ . لَمْ يَعُدْ جارُنا غَيْرَ بابٍ كئيبٍ يَزِيْدُ تُرابًا ، ويستقبلُ العَنْكبوتْ .

أبـي كـان يَـمْـنَـعُـنـي أَنْ أسائـلَـهُ عَـنْ مـصـيـرِ الـذيـن مَـضَـوْا . قـال لـي إنَّ ثرثرةً في شـئـونٍ كـهـذي تـؤدِّي بأسرتِـنـا للهلاكْ .

تَفَشَّى الجواسيسُ في جَـنَـبَاتِ الحياةِ فأَذْعَـنَـتِ النـاسُ للخـوفِ والـذلِّ . صـار الثراءُ قريبَ المَـنالِ لكلِّ كـذوبٍ ينـافقُ مَنْ يملكونَ الأمورْ .

فقلـتُ لنـفـسـيَ إمَّـا الـرحـيـلُ وإمَّـا الجنونْ.

فـأفْـلَـتُّ للـصَّـحَـراءِ . دَخَـلْـتُ بـلادَ الكـبـائرِ والحَـرِّ أمْكُـثُ بيـن عديـدٍ من النـاسِ يَـقْـبَـعُ من تحتِـنـا النِّفْـطُ في هَـدْأةِ العمـقِ . يأكـلُ أعمـارَنـا ثم يُـلقِـي إلينـا ببعضِ النقودْ .

شهـورًا مع الفَجْـرِ أَصْحـو بلا بهجةٍ . لـيـس في النَّـفْـسِ شـيءٌ سـوىٰ أَمَـلٍ مُـبْـهَـمٍ ، ونـعـيـمٍ حـزيـنٍ مِـنَ الذكرياتْ .

مُصادَفَةٌ جَعَلَتْ غُرْبَتي وطناً فغفرْتُ لتلك الحياةِ طريقًا طويلاً من العَثَراتْ .

تبدّلَ خَطْوِي . أَراني مُحاطًا بنورِ ضُحًى قد تبارَكَ بالظلِّ أَمْضي أنا وفتاةٌ إلى شاطئِ البحرِ في خَدَرٍ يَقِظٍ . ألفُ معنًى وأُمْنِيَةٍ في تجاورِنا وهناك الكثيرُ من الهمَساتِ خلال ازْرِقاقِ المياهْ .

لقد تَرَكَتْني قُبَيْلَ الغروبِ ولمّا تجلَّلَتِ الأرضُ بالليل جاءت إلى منزلي وهْيَ لاهثةٌ . مَكَثَتْ لحظاتٍ قصاراً وقالت أُحِبُّكَ ثُمَّ اخْتَفَتْ . تركَتْني وحيداً أُعاني ظلاماً من النَّشَواتْ .

أبوها من الشامِ ، والأمُّ قد هاجَرَتْ من فَرَنْسا فكانت فتاتِي شموساً شتائيةً ... ها أنا في سُهولٍ قدِ امْتَلأتْ بالشجيراتِ والزقزقاتْ .

أَرَتْـنـي كـواكـبَ فِضِّـيَـةً سَـبَـحَـتْ في الظلامْ .

فأَنْجَبْـتُ مِنْها صبـيًّا وبِنْـتًا ... ومِـنْ أَسَـفٍ أنـنـي سـوف أتـركُـهُـم وأمـوتُ بُعَيْدَ وصولي إلى الأربعينْ.

تـصاعَـدَ كلُّ كِـياني فـصِرْتُ حَوَاسَّ بـلا جَسَدٍ أتسامَى خلال الفضاءْ.

دمـوعُ الذيـن بكَـوْا لفِراقـي ، وأحزانُ أُمِّي أراها بـغيـرِ أسًى . لَمْ أَعُدْ أَنْتَمي لمشاعرِ تلكَ الحياهْ .

دخلتُ قوانينَ أخرىٰ أشدَّ رسوخًا ، وأعتَىٰ مُخاطَرَةً ... آهِ إني أكابِدُ حُرِّيَتي في قِفارِ السماءْ .

حشودٌ من الذكرياتِ أمامي . مَضَيْتُ بها وتسللتُ نحو صديقي . دَخَلْتُ لأحلامِهِ وهْوَ في نومِهِ. إنه شاعرٌ . سأبوحُ إليه بعُمْري فَيَكْتُبُني مُنْذُ أنْ كنتُ بَعْضًا من القطَراتْ.

ولكنهُ كبقيةِ مَنْ يَنْتَمونَ إلىٰ الأرضِ لا يَمْلِكُ الكلماتِ التي تستطيعُ الوصولَ لأحوالِ روحي وقد تَرَكَتْ جَسَدي فكأني أُحَلِّقُ وهْوَ يُكابِدُ مَوْجَ المحيطْ.

فأنهَىٰ قصيدتَهُ عَجِلاً ثم أخطأَ حينَ رأىٰ أن يُسَمِّيَها هذيانَ السجينْ .

أحلامُ العفاريت

العفاريتُ وجودٌ ليس من رَيْبٍ بهِ.
أشجانُها نارٌ ، ومأواها العراءْ.

قد رآنا الناسُ والناسُ أكاذيبٌ
لِذا قَدْ أَنْكَرونا فَلَجَأْنا لقلوبِ
الشعراءْ.

إنَّنا آلهةٌ صُغْرىٰ تمادَتْ في متاهاتِ
الوجودْ.

قَدْ أَتَىٰ أسلافُنا من زُرْقةِ النيرانِ
ثمَّ ارْتَحَلوا عَنَّا ، وها نَحْنُ نَرَىٰ الأكوانَ
آمادًا وصمتًا ماكرًا لا تَخْتَفي عَنْهُ
تَهاويلُ الشتاءْ.

ها أنا أَحْكي مَصِيري مُنْذُ أنْ كنتُ
كِيانًا في الفضاءْ.

إنني العِفْريتُ كالأنغامِ ، كالأنوارِ
لا يُمْسِكُني شيءٌ . هباءً خالدًا أَسْرِي
مَنيعًا عَنْ قوانينِ الزوالْ.

إنني عَبْرَ مَجَرَّاتٍ مَضَتْ كنتُ زمانًا
راحلاً بَيْنَ النجومْ.

أتَخَفَّى كالثواني ثم أبدو هائلاً أَمْشِي
بطيئًا مثلَ آلافِ السنينْ.

قد أحاطَتْني المسافاتُ التي لا تَنْتَهي.
رُحْتُ أُعاني مِنْ خُلودي ، مِنْ بَقائي دَوْنَ
جَدْوَى. لا أنا شيءٌ ، ولاشيءَ يَراني .
آهِ مِنِّي وأنا السَّعْيُ المَلولْ.

فَهَبَطْتُ الأرضَ مَشْغوفًا بأنْ أفْنَى ، وأنْ أَمْزُجَ أسراري بِذَرَّاتِ المكانْ.

هكذا أهجرُ بعضًا من صِفاتي بَعْدَ أنْ مازَجَنِي روحُ المكانْ.

كانتِ الأهواءُ تَمْضي بي من السهلِ إلى أعلَى الجبالْ.

يا تُرى هل صِرْتُ مَرْئيًّا ؟ وهل أبدو إلى الساهرِ إذ أسْرِي مع الريحِ ، وأغفو في الغَمَامْ؟

قلتُ فلأَنْزِلْ إلى الناسِ فأغدو في حِمَى الأشياءِ ، والنهرِ القريبْ .

كلُّ ما حَوْلي إناثٌ وذكورٌ. يا لها من بهجةٍ تلك العَلاقاتُ التي تَجْعَلُ هذي الأرضَ أحلامًا تَسِيرْ.

إنه فَضْلٌ كبيرٌ أَنْ أَراني في نعيمٍ يَجْعَلُ الأعمارَ آلافَ المعاني وهْيَ تَمْضي للفَناءْ.

بَعْدَ أَنْ كنتُ زمانًا دونَ قَيْدٍ ها أنا أَسْرِي مع الصُّبْحِ ، وأَنْسَلُّ بأحزانِ المَغِيبْ .

فـأَرى الإنسـانَ مظـلـومًا ظَلومًا ، والذي
مِـنْـهُ تَسـامَى يَجْعَـلُ الأيـامَ أنغـامًا ،
ويَـبْـني ألفَ مَـجْـدٍ من تـرابِ الأرضِ
والصخرِ وماءِ السَّلْسَبيلْ .

العفاريتُ اشْـتِـياقٌ للزوالْ .

قد رآنا النـاسُ رؤيا في السمـاواتِ وفي
أعماقِـهم لكنهم قد أَنْـكَـرونـا ثم ضَـلُّـوا
في الحياهْ.

فَلَجَأُنا لقلوبٍ حَوَّلَتْنا لحروفٍ.
هكذا صِرْنا سُطوراً. هكذا يُمْكِنُ
أَنْ تَقْرَأَنا الأرواحُ أو تَنْطِقَنا بعضُ
الشفاهْ.

هكذا سوف يرانا الناسُ سِحراً
ظاهِراً أو دَفَقاتٍ من غيوبٍ أو عبيراً
في التِّلالْ.

العفاريتُ حياةٌ فَنِيَتْ عَبْر الحياهْ.

فتاة عابرة ورجل مقيم

قد تشابَهَتِ الطُّرُقاتُ خلالَ الظلامِ ، وضاعَ الشَّذَى.

فَتَشَبَّثْتُ بالنورِ ، والهمسِ في داخلي ثم أَشْعَلْتُ حَرفًا فحَرفًا ، وأرسَلْتُ نَفْسيَ بَيْنَ السُّطورِ أصالِحُ بِيْنَ القِفارِ وبَيْنَ النَّدَى.

واوُ عَطْفٍ تُكَرّرُ من نَفْسِها فتَمُرُّ بعُشْبٍ ، وتَمْضي لنَبْعٍ ، ومِنْهُ إلى جبلٍ يتنازعُ فيهِ الصَّدَى.

رُبَّما اسْتَدْرَجَتْني المعاني إلىٰ غايةٍ قد تُصيبُ القصيدةَ سِرًّا ببعضِ الأذىٰ.

إنْ وَجَدْتُ قليلاً من الماءِ قلتُ لنَفْسي سأمضي وأحيا مع البَدْوِ يومًا بغير ظَما.

لكأنَّ صبيًّا نبيًّا تَحَرَّكَتِ الروحُ داخلَهُ فجأةً فَتَعَجَّبَ مِنْ كلِّ شيءٍ، وظَلَّ يَسِيْرُ بغيرِ هُدَىٰ.

سـأعـودُ بقلـبي إلىٰ رحلةِ المُتَـنَـبِّـي ، وفـي ظِـلِّـهِ رُبَّـمـا حالَـفَـتْـني الجَـسـارةُ وقـتًا قصـيرًا فـبُـحْـتُ لَـهُ إنني شـاعِـرٌ ثم عُـدْتُ بَطِـيءَ الخُطَىٰ.

حَـرْفُ جَـرٍّ يَـجُـرُّ غـزالاً ، ويُـفْـسِـدُ تَـفْـعـيـلةً . أتخلَّصُ مِـنْـهُ فيـهـربُ منـي الـغـزالُ ويـصـبـحُ في لـحـظـاتٍ عـيـونَ مَـها.

كلُّ تَفْعيلةٍ زَمَنٌ راحَ عُمْري بِهِ ،
والقصيدةُ باطلةٌ إنْ تَخَلَّتْ عن النورِ
أو غابَ عنها الأسَى.

ها أنا أتَخَفّى خلالَ المعاني
أُهَدِّئُ من دَفَقَاتِ الغِناءِ . فأصبحتُ
في لحظةٍ عابِرًا يَتَنَفَّسُ قُرْبَ النساءِ .
بهذا تَوَقَّفْتُ لا أستطيعُ اقْتِرابًا
ولا أستطيعُ رجوعًا كأني أعودُ إلى
خَجَلٍ يَنْتَمي لعهودِ الصِّبا.

فَتَقَرَّبْتُ مِنْ أجملِ الفتياتِ بباءٍ وهاءٍ فصرتُ بَهاءً وما إنْ تَلَعْثَمْتُ صِرْتُ هُبوبًا ولكنها عانَقَتْني فنِمْنا مَعًا للضُّحى[1].

رَجُلٌ وفتاةٌ مُجَرِّبةٌ يلهوانِ معًا . لَمْ أكُنْ مُدْرِكًا حينها أنها عَشِقَتْني ، وأنيَ صرتُ أَبًا وأنيسًا لها ، وضياءً عليها أخفِّفُ غُرْبَتَها . إنها قد أَتَتْ للمدينةِ تَطْلُب عُمْرًا جديدًا يخالِفُ ما كابَدَتْهُ بتلكَ القُرَى[1].

حِكْمَةُ الريفِ خالصةً عِنْدَها ، ونقائصُهُ ، ومحاسِنُهُ ، فتعلَّمْتُ مِنْها وعلَّمْتُها.

كنتُ شابًّا وكَهْلاً ، وأكثرَ مِنْها هُياماً ، وأكبرَ منها بعشرينَ عاماً ، وبَعْدَ ليالٍ تمازَجَتِ النَّفْسُ بالنَّفْسِ ، والعُمْرُ بالعُمْرِ ... قالتْ نُقَسِّمُ هذا وذاكَ مُناصَفَةً بيننا.

غيرَ أنِّيَ حَذَّرْتُها.. إنَّ لي زوجةً وبنينَ ، وهُمْ وَطَني ، وعُبودِيَّتي فَبَكَتْ ثم في غَفْلَةٍ عانَقَتْني فَنِمْنا مَعًا فوَصَلْنا بلادَ الشَّذَى[1].

هي جِنِّيَةُ الليلِ تَجْذِبُني فأُسارِعُ في خَدَرٍ نَحْوها. لَسْتُ أَسْمَعُ غَيْرَ نداءاتِها . لا أريدُ الرجوعَ ، وأَعْلَمُ أني إذا ما أَطَعْتُ حنيني ورَغْبَتَها فاقْتَرَنْتُ بها فكأنيَ أُشعلُ ناراً بِبَيْتي فسُحْقًا لقلبي إذا ما عَتا.

قلتُ يا أنتِ يا عَبَقًا ، يا مِزاحَ العواصِفِ ، يا وَرْدَةً شَوْكُها ليس يؤلِمُني ، يا ابْنَتي، يا مُعَذِّبَتي ، يا خِداعَ المسافاتِ ، يا نَسَمَاتِ الرُّبَى .

إنـنـا جَـسَـدٌ واحـدٌ ومـصـيـرانِ
يَفْتَرِقانِ أَلَسْتُ بدايةَ لَيْلٍ وأنتِ
الضِّيا؟!

قُلْتُ ما قُلْتُ ما أَنْصَتَتْ ثم صارَتْ
تُكَتِّمُ نيرانَها.

لَكأني أَرَىٰ ما بأعماقِها .. نَغَمٌ مُرْعِبٌ
وغروبٌ يُخَبِّئُ ما حَوْلَه مِنْ مَدَىٰ.

قِطَّةٌ جاءَ مَوْسِمُها فاستحالتْ كِيانًا
مُخيفًا تأهَّبَ للحَمْلِ. إنَّ الحياةَ هنا
لُغَةٌ لا حروفَ لها.

غابةُ والأنوثةُ فيها تُجَدِّدُ أحوالَها.

قُلْتُ يا أنتِ لكنها أَسْرَعَتْ تَخْتَفي ثُمَّ غابَتْ كأنْ لَمْ تَكُنْ. تَرَكَتْني أَتوقُ إليها. تَحَوَّلْتُ مِنْ بعدِها شَبَحًا يتباعَدُ أو جَسَدًا سائرًا في المساءِ بأشواقِهِ مُبْتَلَى.

كِـدْتُ أسألُ ناسًا تمرُّ أمامِيَ عَـنْـهـا ، وأبـحـثُ بـيـن الـوجـوهِ وفـي ظُـلُـمـاتِ الـحـديـقـةِ عَـنْـهـا ، وكـلَّ صـبـاحٍ أسـيـرُ خـلال الـطـريـقِ فأبـدو مُفيقاً أردُّ الـتـحـيـةَ مُـبْـتَـسِـمًـا وأنـا مُـدْرِكٌ أنَّ قـلـبـي يـسـافـرُ بين نيازكَ عابثةٍ في السَّما.

هـا أنـا أُرْسِـلُ الـدمـعَ بـيـن الـسـطـورِ أقـرِّبُ بـيـنـي وبـيـن الـنـجـومِ . هـو الكونُ مَـهْـلَـكَـةٌ . كـيـف أصـبـحُ جِـنًّا طـلـيـقًـا فأسرِي بأجوائِهِ لا أخافُ الرَّدَى؟

حَرْفُ نونٍ يؤججُ ناراً فَتَشْتَعِلُ الروحُ بالعِشْقِ. يا عِشْقُ يا عَتَماتٍ تُحيطُ النجومَ، ويا غامِضًا مِثْلَ صوتِ المحيطاتِ مِثْلَ رحيلِ الطيورِ، ومِثْلَ صُعودِ النَّبِيِّ إلىٰ سِدْرَةِ المُنْتَهَىٰ.

لم يَعُدْ جَسَدي راغبًا في الذَّهابِ مع الناسِ. إنَّ الليالي تحاصِرُهُ فاخْتَفَىٰ.

ظـلَّ في كَسَـلٍ يَـتَـذَكَّـرُها مُسْتَعـيدًا مباهجَها ، ويوحِّـدُ بَيْنَ التَّشَـهِّي وبَيْـنَ الرؤىٰ .

حَرْفُ خاءٍ تحوَّلَ في لحظةٍ خِنْجرًا ثُمَّ صارَ خفافيشَ تَخْمِـشُ وَجْهي فأصحـو من الحُـلْمِ ظِـلاًّ مريضًا فأَدْخُـلُ حُـمَّىٰ ، وأسـمـعُ صـوتًا خَـفِـيًّا يـقـولُ لـقـد ضـاعَ منكَ الهُدَىٰ .

كيف بُحْتُ بأشياءَ لا يَنْبَغي أَنْ أبوحَ بها ؟!

كلُّ كونٍ يُبَيِّنُ أسرارَهُ ، والقصائدُ تَفْضَحُ صاحبَها . والحروفُ شُموعٌ أنا لَسْتُ أُطْفِئُها .. والفتاةُ كأني أراها تعودُ وتفتحُ بابًا فبابًا فأحتارُ بين الشَّذَىٰ والشَّذَىٰ .. غَيْرَ أنَّ المعاني التي عَذَّبَتْني لابد أنْ تَنْتَهي هاهنا .

1994/1993

الهجرة إلى الرسول

ها قصيدةُ عِشْقٍ بها أتقرَّبُ مِنْكُمْ ، وأَنْتُمْ سرابٌ يخادِعُني فأُسائِلُ نَفْسي مَتَى أَرْتَوي؟!

أيها الناسُ يا غُرَباءُ أَلَسْتُمْ ضيوفَ الزمانِ الذي يَنْقَضي؟!

مُنْذُ أنْ هامَ في الظُّلُماتِ امْرُؤ الْقَيْسِ والليلُ مُتَّهَمٌ ، والمُحِبُّونَ لا تتغيرُ أحوالُهمْ، والنفوسُ عواصفُ لا تَنْتهي .

لَكأنَّ الليالي تُبَدِّلُ ثَوْبًا بثَوْبٍ، وناسًا بناسٍ، ولا يتزايدُ فيها سوى الذكرياتِ، وحزنِ الذينَ لهم أنْتَمي.

غَيْرَ أنَّ الليالي تخادِعُنا وتُخَفِّفُ عَنَّا بنورِ النجومِ، وعِشْقِ النساءِ فَمَنْ أنتَ يا عِشْقُ يا أيها الزائِلُ الأَبَدِيْ؟!

قَدْ جَعَلْتَ النساءَ قواريرَ عِنْدَ الرسولِ.
أراهُنَّ فوقَ الهوادجِ مُرْتَحِلاتٍ فجاءَ ظلامُ
الصحارِي ، وجاءَ نَسيمُ الحجازِ ، ومَرَّتْ
شياطينُ شِعرٍ وغابَتْ خلال الهواءِ وكانَ
الهلالُ بِمَنْزِلَةٍ تَتَضاءَلُ فوقَ نخيلِ
البَوادِي فأحسستُ جِنِّيَةً تتتبَّعُ خَطْوِي
فأسْرَعْتُ في السَّيْرِ لا أتَلَفَّتُ خَلْفي فما
لحِقَتْني ولكنها قد أَتَتْنيَ إنْسِيَّةً في
النهارِ مباركَةً جَعَلَ اللهُ فيها مَبِيْتي ،
وسِرِّي ، ونارَ فؤادي . فقلتُ لها وأنا
أتزوجُها أنتِ أحبابُ قلبي ، ولن أتعثَّرَ
مادُمْتِ مُمْسِكَةً بِيَدِي.

كنتُ حِينئـذٍ مُنْصِتًا للسماواتِ أحتارُ بين دهـاءِ معـاويةٍ وصـفـاءِ عَـلِـيٍّ ، وأعـدو وراءَ القصـائدِ أصطادُ غِزْلانَها ، وأخبئُ أسـرارَها داخِـلي ثـمَّ أشـعـرُ أنيَ لا أَكْتفي.

قـد تـبـاركَ مـن جَـعَـلَ العَـرَبَ القـدمـاءَ مغـامَـرةً فَـظَّـةً ، وغنـاءً حزيـنًا له صِلَـةٌ بدَمِي.

عِـشْـتُ في ظِـلِّـهِـمْ زَمَـنًا . إنَّـهُـمْ غُـرْبَـةٌ قد قَضَيْتُ بها أَجْـمَـلَ العُـمْـرِ . لَـسْـتُ أُقَـدِّسُ ما قَـدَّسُـوا غَـيْـرَ أنـيَ أَخْضَـعْتُ نورَ ضميري إلى كلِماتٍ أَتَتْ مِنْ ضميرِ الرسولِ ، وإني لأخلاقِهِ تابِعٌ لا يخونُ ولا يَنْحَني.

آهِ إنِّي عَـلَى ثقةٍ أنني سأراهُ ولستُ عَـلَى ثـقـةٍ أنَّـهُ سـوف يَـقْـبَـلُ أنْ نَـلْـتَـقي.

كانتِ الصحَـراءُ تحاصِـرُني فأتُـوهُ خـلال المسـافاتِ أَشْكو إليهِ ، وكنتُ أُطَـمْـئِنُ نَفْسي ، وأَجْزِمُ أنَّ شَكاتي ستَبْلُغُهُ وهْوَ يَـمْكُثُ في سِرِّه السَّرْمَدِيْ.

أنـتَ حـاربْـتَ بالنَّـفْـسِ والسـيـفِ... إنـي حفـيـدُكَ أَضْـعَـفُ مِنْ أَنْ أُطَـفِّـئَ نـارَ النـفـاقِ ، وأنـبـلُ مِنْ أنْ أُمـاشِـي وُلاةَ الأمـورِ ولسـتُ الذي يسـتـطـيـعُ الحيـاةَ مع الكائناتِ التي في الثَّـرَىٰ تَخْتَفي .

قد تكاثَرَ لَغْوُ الثعابينِ حَوْلي فأَلْفَيْتُني أتصاعدُ مُخْتَفِيًا في الغيومِ فصِرْتُ هنالكَ بعضَ المعاني التي نُسِيَتْ ، وأرادَ لها اللهُ أنْ تَنْزَوِي .

كلُّ مَنْ أَظْهَروا بُغْضَهم خَلْفَ ظَهري أراهُمْ ، وأشْعُرُ أحقادَهم فَهَرَبْتُ ولو ساعةً لحِماكَ ... كأني – أنا من تشاغلَ عَنْكَ – جديرٌ بأنْ أَتَباطَأَ عِنْدَكَ أو أتَسَلَّلَ عَبْرَ معانيكَ أَطْلُبُ أنْ أَحْتَمي .

إنَّ روحي طيورٌ تُغَرِّدُ في أَسْرِها ، والمَدَى الحرُّ في أَسْرِ ألفِ غُرابٍ فكان لُجُوئي إليكَ يُخَفِّفُ مِنْ مِحْنَتي .

لَنْ أكونَ عَبوسًا ولا يائسًا . أَنْتَ علَّمْتَني أنَّ غَيْبَ السماواتِ يَطْوِي جَناحًا عَلَى المُعْجِزاتِ ، ولا يَنْبَغي لفؤاديَ أَنْ يَتَعَجَّلَهُ . ولعلَّ وجوديَ مُنْعَزِلاً في رِحابِ الأسَى نِعْمَةٌ لا يريدُ لها اللهُ أَنْ تَنْتَهي.

ولَعَلَّ اللهيبَ الذي يَحْرِقُ القلبَ يَعْصِمُهُ من شرورِ الهَوَى. قَدْ تباركتَ يا قَلْبُ في كلِّ يَوْمٍ بِهِ تَصْطَلِي.

والرسولُ يَلُوْحُ على البُعْدِ مُقْتَرِبًا . كِدْتُ أَجْعَلُ في ظِلِّهِ مَنْزلي.

رُبَّما قلتُ للناسِ مُدَّعِيًا إنَّهُ مَرَّ بي ذاتَ ليلٍ بحُلْمٍ فأَوْعَزَ لي بالذي يَنْبَغي أَنْ أُدَوِّنَهُ ، والذي يَنْبَغي أَنْ أحاذِرَهُ ، ثم لَمَّا مَضَى نَسِيَ المِسْكَ رائحةً تتضاءلُ شيئًا فشيئًا ولا تَنْمَحي .

زوجتي أخبرتْني بأنَّ وجودَ الرسولِ بهذي القصيدةِ باركَها ، ودَعَتْ لي بأنْ أَهْتَدِي .

كالقواريرِ هُنَّ: زُجاجٌ رقيقٌ يبدِّلُ ألوانَهُ وروائحَهُ . يتكسّرْنَ حينًا ويَجْرَحْنَ حينًا ، ويَحْمِلْن ما يتحمَّلْنَهُ ، والرجالُ مشاعرُ لا تَهْتَدي.

ولأني تلاشَيْتُ في ظُلُماتِ الوجودِ حَيِيًّا ومضطرِبًا وَهَبَتْني الليالي بروقًا أُبَدِّدُها ، ونجومًا بها أختلِي.

لامَنِي من رَأَىٰ أنّ مَسًّا بروحي فَخَبَّأْتُ ما بيَ عنْهُ ، ولا...لَمْ أَلُمْ لائمي.

1995

ليلة البدر الأخيرة

لسوف أقولُ لكَ السِّرَّ يا بَدْرُ...
أنتَ تُبَدِّدُ كلَّ ظلامٍ وحينَ تَغِيْبُ
يعودُ الظلامْ .

وأنتَ الذي أَرْبَكَ القلبَ مُنْذُ الطفولةِ
يا عابِرًا في سلامْ.

فأشعرُ أنكَ تُبْطِئُ في السيْرِ فوقَ
السحابِ لفَرْطِ الذي فيكَ من
ذكرياتْ .

وأنتَ نديمُ الحضاراتِ . قَدْ عَبَدوكَ ولاموكَ
واسْتَغْربوا أنْ تكونَ هناكْ.

كأنكَ أَخْبَرْتَهم عن مكانِ الأساطيرِ أو عن
شحوبِ الحيارَىٰ وهم سائرونَ خلالَ
شَذَاكْ.

يظنونَ أنَّ الجميلَ من الحزنِ يَرْقَىٰ
إليكَ ، وأنّ شجونَ القصائدِ قد صَعِدتْ
واسْتَقَرَّتْ مُنَعَّمَةً في حِماكْ.

وأنتَ نهارٌ خَفِيٌّ سَرَىٰ في الظلامِ
فأشْعُرُ قلبيَ تَنْهيْدَةً يا أميرَ الليالي.
أقولُ لنَفْسي سأصعدُ نحوكَ بَعْدَ
مماتي لأبدأَ مِنْكَ ارْتِحالي فأدخلُ
في زُمْرَةِ الراحلينَ خلالَ السماءْ.

كأنّي أراكَ تَرَىٰ كلَّ شيء وأنتَ تَمُرُّ
وئيداً . أراكَ تراني وقلبيَ مُشْتَعِلٌ
لا يصدقُ أنك بعضُ صخورٍ ، وأنك
مستغرِقٌ في ظلامِ الشتاءْ.

لسوف أقول لك السرَّ....إن الحياةَ التي تتحركُ في الأرضِ لم تتحررْ من الشرِّ يومًا ، وإنَّ ضياءَك لا يقتلُ الظُّلُمَاتْ .

تَحَرَّرْ من الأرضِ يا بدرُ . إنَّ الخلودَ الرتيبَ هوانٌ ، وإنَّ وراءَكَ مُتَّسَعًا من ليالٍ فسافِرْ ، ولا .. لا تَكُنْ مِثْلَنا . نحن بعضُ الخُطَى ، نحن أسْرَى التراب .

بَعَثْنا إليكَ خلال مئاتِ السنينِ بأوهامِنا . أنتَ في أسْرِنا فَتَخَفَّفْ من الدَّوَرانِ ، وخُضْ في مهالكِ ذاكَ الفضاءْ.

تَحَوَّلْ لقلبِ المَجَرَّةِ يا بَدْرُ . أنتَ جديرٌ بأَنْ تَتحطَّمَ في الكونِ عَبْرَ المسافاتِ ، أنْ تتحوَّلَ في لحظةٍ عاشقًا يتصادمُ في لهفةٍ بالنيازكِ ، منجذبًا للنهاياتِ ، مبتعِدًا عن شواطئِنا . يالَهُ من ذَهابْ .

وعندَ انْتِفاءِ الزمانِ تَرَىٰ النورَ مُشْتَعِلاً بالعذابْ .

لسوف أقولُ لكَ السرَّ ... إنّ أناسًا أَتَوْكَ ، وساروا عليكَ . قَدِ ابْتَهَجوا في جنونٍ كأنَّ الذي كان يمضي خلال تُرَابِكَ أكبرُ مِنْكَ. تُرَىٰ هل شَعَرْتَ دَبيبًا يَجُوسُ هنا وهناكْ؟!

قَدِ اقْتَحَموا عِصْمَةً كنتَ فيها وعادوا يقولونَ إنكَ مَحْضُ خرابْ.

سأبكي عليكَ إذا ما رَحْلْتَ، وأبكي أقاصيصَ أجدادِنا، والنبوءاتِ، والجَزْرَ والمَدَّ، والشهواتِ التي اشْتَعَلَتْ في مَداكْ.

وأبكي نُهيراً تراءىٰ بنورِك مِثْلَ السرابْ.

تَحَوَّلْ بقلبِ المَجَرَّةِ يا بدرُ ألفَ شهابْ.

1995

الرعـاديـــد

رآني الرَّعاديدُ في كَفَني فاطْمَأنوا.

وقد كنتُ من قَبْلُ وَمْضًا وشَوقًا .
أُخالِسُ بعضَ القلوبِ فأنْدَسُّ فيها
وأَحْنو.

أنامُ قليلاً ، وأَخْرُجُ مِنْ قُمْقُمِ النومِ
مثلَ السحابِ . أسيرُ مع الريحِ ثم
أَفِرُّ .

أنا الجِنُّ تَطْلُبُني النارُ ، والنارُ أوهامُ
بعضِ القلوبِ ، وأخيلَةٌ تتلاشَى ،
وصَمْتُ .

سَمِعْتُ مرورَ قِطارٍ بعيدٍ فَخَفَّفَ مِنْ وَحْشَتي وأنا سائرٌ في ظلامِ الحقولِ. أخافُ مِنَ الكائناتِ ، ومن عَتَماتِ البيوتِ . قَدِ اتَّصَلَ الليلُ بالليلِ قلتُ لَعَلِّي مِنَ الفَجْرِ أدنو .

تَراءَتْ ليَ الذِّكْرَياتُ نُفُوسًا مُحَبَّبَةً ، وكتابًا يؤانِسُني ، وقناديلَ مثلَ الأغاني تَرِقُّ وتَصْفو.

توهَّمْتُ أني أغيبُ بقلبِ المعاني كأني رأيتُ الذي جَعَلَ الليلَ مأوىٰ النجومِ ، وأَرْشَدَني لبلادِ الحيارَىٰ...نجومٌ وحقلٌ ومِصْرُ تُعاني ، وإنَّ الرَّعاديدَ يَقْتَلِعونَ الشُّجَيْراتِ جَهْرًا ، ويقتسمونَ الصحارِي ، ويقتتلونَ علىٰ قَدْرِ خِسَّتِهِمْ ، والعبادُ علىٰ الضَّيْمِ تَغْفو .

فقلتُ سأهْرُبُ مِنْ كلِّ شيءٍ ، وأَدْخُلُ في حُلُمٍ ، وهنالكَ أنجو .

نـجـومٌ وحَـقْـلٌ ومِـصْـرُ قـدِ امْـتَـلأتْ
بـالمَراثي . نُقوشُ المعابدِ قد حاصَرَتْني
كأنيَ أسمعُ هَـمْـهَـمَـةً ، وأُحِـسُّ التماثيـلَ
فـي الليـلِ تَصْحو.

أجـاءَ القُدامَـى بأحلامِهـم أم تُراني إلى
زمـنٍ بـائـدٍ قـد دَخَـلْـتُ ؟

بِـهِ أتـنـفَّـسُ وَحْدِي وأشكو .

سَمِعْتُ الذي قال لي أنتَ أنتَ سَلِيْلُ النجومِ ، وغاب كأنْ لَمْ يَكُنْ ثم زارَتْ فؤادي وجوهُ الأحبَّةِ . قلتُ ألا تَعْلَمونَ بأنيَ أبحثُ عن قِطْعةٍ من ظلامٍ وأني انْتَهيتُ؟

ظلامٌ وحقلٌ وظِلٌّ قطارٍ يَضِجُّ ، وفي عَتَماتِ الرُّبَى تَتَخَفَّى الأماني فقلتُ لنَفْسيَ إنَّ الذئابَ التي تترَبَّصُ بي لَنْ تَراني . أليسَتْ نسائِمُ مِصْرَ تُضَلِّلُهُم ، والشجيراتُ أخْفَتْ مساريِ؟ مَضَيْتُ بلا وَجَلٍ والرياحُ تُسايرُنِي ، وتُبَشِّرُنِي أنني سوف أنجو.

تَـقَـرَّبْـتُ مِـنْ واهـبِ الكلِـمـاتِ بقلـبي
أسـائِـلُـهُ لائـمـًا ومُحِـبـًّا مَـتَـى سـوف
تَـفْـتَـحُ بـابـًا ؟ وكيـف تـشاغَـلْـتَ عنّي ؟
ألستَ الـذي كـان يـأمُـرُني أنْ أظـلَّ
أبـيًّا كـسُـنْـبُـلَةٍ فأطَعْتُ؟!

لقـد كرِهَـتْـنـي الرعـاديـدُ سِـرًّا ، ومَـرَّتْ
ثعابينُـهُمْ تَحْتَ شُـبَّـاكِ بَـيْـتي فكيف
سأشدو ؟!

لعلكَ لستَ هناكَ ، ولستُ سوىٰ واهمٍ يتلاشَىٰ خلال المسافاتِ . إنَّ السنينَ تفرُّ .

وإنَّ وقوفيَ مُنْتَظِرًا في ظلامِكَ ليس يَليْقُ بقلبي ، ولا...لا يَليقُ بمَجْدٍ رأيتُكَ فيهِ تَروحُ وتَغْدو.

لسوف أسافرُ في الأرضِ ، والأرضُ لَحْدُ.

رآني الرعاديدُ في كَفَني فاطمأنوا.

ديسمبر 1995 – يناير 1996

الخروج من العراق

الحركة الأولىٰ

دَخَلْتُ في مَدَىٰ الرؤىٰ رأيتُ طيفًا
واحدًا مُنْشَغِلاً وحالمًا بل لاح لي
طيفانْ.

تَجَسَّدَا مَعَ اقْتِرابي مِنْهُما . ها «أَمَلٌ» ،
ونِدُّهُ «السَّيَّابُ» توءمانْ.

حَوْلَهما الكثيرُ من فِعْلِ الخَطايا .
خاطِئانِ في مسارِبِ الندَىٰ والناسِ
والأنوارْ.

كلاهمـا طفـولةٌ بقريـةٍ فقيـرةٍ ، وسـامَةٌ معـدومَـةٌ ، موهبـةٌ ناريَّةٌ ، وشهـوةٌ تَنْهَشُ في الأعماقْ.

وفي بداياتِ الشبابِ ضائعانِ في المدينةِ التي تُخادعُ الإنسانْ.

من حَلَـكِ البـؤسِ ، ومن تعثُّـرِ المصيرِ كيـف جـاءتِ الأشعـارُ منهمـا تُـقـاتـلُ الذيـن أسـرفـوا في ظُـلْـمِـهِمْ وتَـفْـتَـحُ الأبوابْ؟!

كلاهما مع الرجولةِ التي تَطْربُ بالأشياءِ ، والأكوانِ ، والنساءِ قد مسَّهما داءٌ يؤدِّي في شهورٍ للممات.

فارْتَدَّ كلُّ واحدٍ إلى الحضارةِ القديمةِ التي أَبْدَعَها أسلافُهُ يأخُذُ منها حِكْمَةَ الوجودْ.

ها «أملٌ» يصبحُ أشلاءً قُبَيْلَ موتِهِ لكنَّهُ يظلُّ صعلوكًا أبيًّا لا يلينْ.

يفيضُ شِعرُهُ بذكرياتِهِ ، بالمجدِ والإذلالِ في مَسيرةِ الخيولِ ، بالطيورِ ، والتَّنَفُّسِ الأخيرِ للزهورْ.

تجاهلَ الموتَ الذي ببابِهِ ، وظلَّ حَيًّا ضاحكًا يَسُبُّ أصدقاءَهُ ممازِحًا ، ويَلْعَنُ الأوغادْ.

لكنَّهُ «السَّيَّابُ» يَذْرِفُ الدموعَ في حنينٍ للشفاءِ والنساءِ . أَنْقِذوني لا أريدُ أَنْ أموتْ.

كأنَّـما «السَّيَّابُ» في فَنائِـهِ كـان يخافُ أَنْ يعودَ نحو بابلَ التي تجاهَـلَتْ حياةَ ما بَعْدَ الحياهْ.

ونِدُّهُ يموتُ كي يَحْيا بقبرِهِ لَدَىٰ مِصْرَ القديمةِ التي تُـقَدِّسُ الأمواتْ.

خـرجْـتُ مـن مَـدَى الـرؤىٰ تـحـيـطُـني بغدادْ.

الحركة الثانية

دَخَلْتُ بستانًا كأنني تأخرتُ عن النخيلِ والأشجارِ عامًا كاملاً من الربيعِ والمساءْ.

فغِبْتُ في حِمَىٰ خَمِيلَةٍ، وقلتُ ها هنا سأَشْتَكي من العراقِ بل من الغزاةِ إذ أَتَوا يُحَلِّقونَ في الفضاءْ.

لَمْ أزُرِ العراقَ وهْوَ ضالعٌ في زهوِهِ ،
وها أنا روحًا محبًّا كارهًا أزورُهُ.
فصرتُ في قافلةٍ تائهةٍ تواجِهُ
العراءْ.

أَشْعُرُ بالأغرابِ في مساربِ السماءِ
أحرارًا وقد تَجَمَّعوا فأَرْسَلوا أهوالَهم
تدمِّرُ العراقْ.

خَفَّفَ من ذُعْري لجوئي للخرافاتِ التي
ورِثْتُها عَنْ آخرِ الأجدادْ.

شعرتُ أشجانًا تَحُومُ في المَدَىٰ . لعلَّني سوف أَرَىٰ « مُظَفَّرَ النوّابْ ».

يأتي مع الريحِ دماءً أو طيوفًا قد أرادَتْ أنْ تعودَ للعراقْ.

قلتُ لَهُ : أنتَ الرؤىٰ . كيف ذهبتَ للمسافاتِ التي تَفْتِكُ بالإنسانْ ؟!

فاقْتَرَبَتْ شَرَاذِمُ الذئابِ من أشجارِ شِعْرِكَ العظيمْ .

واندسَّ في صَفْوِ معانيكَ غمامٌ قادمٌ
من المؤامراتِ، والتَّلَكُّؤِ العقيمِ
في غَياهبِ الأحزابْ.

معذرةً يا مُنْصِتًا للغَيْبِ إذ يأتي مع
الأسرابِ يا مُعَلِّمي مباهجَ الأكوانِ
أنْ رأيتُ هذه الشخوصَ ضِمْنَ عالمٍ
يَزولْ.

والآنَ أُعلنُ انْحِيازَ الروحِ للفوضَى
التي تنظِّمُ الحياةَ والأحياءَ في
الغاباتْ.

خَرَجْتُ مِنْ بوابةِ البستانِ حيًّا هالكًا ،
والنارُ حولِي تأخذُ الأجسامَ والزهورَ
للرمادْ.

وقلتُ لا نجاةَ غيرُ أَنْ أظلَّ سائِرًا
بلا توقُّفٍ مع الفراتْ.

الحركة الثالثة

أعادني النهرُ إلى طفولتي. وجدتُ زَهْرَةً وأنغامًا وأنثى فانْسَلَلْتُ نحو أيامِ الشبابْ.

من وحيِ دَمْعَةٍ ، ونورِ شَمْعَةٍ تقرَّبَتْ نَفْسي من النجومْ.

رأيتُ ذكرىٰ...ها «مُظَفَّرٌ» مَعِي بمِصْرَ في حيِّ الحُسَينِ. كانتِ الأنوارُ والأسرارُ تنْسَلُّ إلىٰ النفوسِ في المَقْهىٰ العتيقْ.

والشاعرُ «الجواهريُّ» ماكثٌ هناكَ تُحْفَةً عريقةً تَحومُ حولَهُ مباهجُ الحيّ العريقْ.

نَظْرَتُهُ بها تَرَفُّعُ الصقورْ.

وإنــه لفـرطِ ما أحـبَّـهُ الـنـاسُ عَـلَى مَـرِّ السنينِ قد أصابَـهُ البَّهاءُ والغرورْ.

حَادَثَـنـا بنِـصْـفِ وَعْـيِـهِ كأنَّـهُ حكيـمٌ زاهدٌ مَلُولْ.

وغابَ في الظلالْ.

وهـا أنا الآنَ أُسـاقُ نـحـوَ نـارٍ تَـفْـتِـنُ الأبـصـارَ في مـسـارِهـا ، وتـسـحـقُ الجنوبْ.

الحركة الرابعة

أنا الذي يقْدِرُ أن يغيِّرَ الأشياءَ والأحوالَ في القَصيدْ.

لم أستطِعْ أَنْ أجعلَ الليلَ يخبِّئُ الدماءْ.

مشيتُ في «البَصْرَةِ» طفلاً شاحبًا تَتْبَعُهُ الأرواحْ .

أهرُبُ من مَشاهدِ القَتْلَى إلى مَشاهدِ القَتْلَى ، وأَنْثَنِي أهيمُ في اسْوِدادِ الليلِ خائفًا مِنَ الأشباحْ .

قلتُ لَعَلَّ هذه الأشباحَ تَمْضي في الخفاءِ
كي تَقُضَّ مَضْجَعَ السفاحْ .

وقلتُ لو كان « مُظَفَّرٌ » معي الآنَ
لرُحْنا في سكونِ الليلِ في خوفٍ
قليلٍ نقتلُ السفاحْ .

لكنني أُفيقُ في مَفازَةٍ تُفْضي إلى
شجونِ كَرْبلاءْ.

مَـعْـرِفَـتـي ، وكلُّ ما مـازجَـنـي مـن نَـغَـمٍ، وحِكْمَـتـي كأنـنـي تركْـتُـها ثَـوْبًا قـديـمًا لـيـس مِـنِّـي ، واخْـتَـنَـقْـتُ بالبكاءْ.

لَـمْ أسـتـطِـعْ أنْ أجـعـلَ الريـحَ تَـبُـدِّدُ العَويلَ إذ يَجوسُ في الخرابْ.

كأنـنـي رأيـتُ ألـفَ شـاعرٍ أنـوارُهُـمْ مُطفَـأةٌ ، وألفَ بـابٍ مُغْلَـقٍ ... مِنْ بَعْـدِهم تجمّعَ الحراسُ والأرذالُ يسجدونَ طاعةً لقاتلِ العراقْ.

كأنَّهُ جُـمْـجُـمَـةٌ تُراقــب الذي يَـدُور في الخلاءْ.

من ذا الـذي يُنقـذني مِنْ هذهِ المسافةِ المُظْلمةِ الرَّعْناءْ؟

في ليلـةٍ هادئـةٍ رحلـتُ واخْـتَـفَـيْتُ. لَمْ أكُـنْ سـوىٰ قـلـبٍ غـريـبٍ يَعْـبُـرُ الوديانْ.

ساعَدَني يأسي عَـلَىٰ الدخولِ في إغفاءةٍ كأنني أَخْضَعُ للأصفادْ.

فَـنِـمْـتُ حـيًّا مـيِّـتًـا وراضـيـًا بـحـكـمـةِ الأفولِ والإشراقْ .

رأيتُني أجوسُ في الأحلامِ تائهًا ومُدْرِكًا وجودي في حِمَى الأحلامْ.

تَشَبَّثَتْ نَفْسي بهذِهِ الشواني لا تُريدُ تَرْكَها . مَكَثْتُ حينًا في ربُاها زائرًا يَنْسَى الذي بِهِ مِنَ الأشواقْ.

ثم انْسَلَلْتُ خارجًا من العراقْ.

1990

المحتـــــوى

السبعة	3
هذيان السجين	29
أحلام العفاريت	49
فتاة عابرة ورجل مقيم	57
الهجرة إلى الرسول	71
ليلة البدر الأخيرة	83
الرعاديد	91
الخروج من العراق - أربع حركات	99

أعمال الشاعر عادل عزت

	تاريخ الطبعة الأولى
١- المتصوفون الشعراء في الزمن العصيب	1983
٢- اختباء النور	1988
٣- العرب القدماء	1990
٤- هواجس الشاعر المقتول	1990
٥- السبعة	2000
٦- ظلام المرسم	2006
٧- البيت المسكون	2009

دواوين الشاعر عادل عزت على الموقع

www.adelezzat.com

السلام للطباعة
ت : 22989714 - 22960665 -22978425
فاكس : 22989251